تاريخ القصاص

وأثرهم في الحديث النبوي

ورأي العلماء فيهم

تأليف

الدكتور محمد بن لطفي الصباغ

المكتب الإسلامي

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أرسله الله بالهدى ودين الحق، فبلّغ الرسالة، وأدّى الأمانة، ونصح للامة فجزاه الله عنا ما هو أهله، وصلى الله وسلم وبارك عليه وعلى آله كما صلى وسلم وبارك على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، ورضي الله عن أصحابه الهداة المهديين، وعن التابعين لهم بإحسان، وعن الأئمة الدعاة العالمين العاملين إلى يوم الدين.

أما بعد،

فهذه رسالة موجزة في موضوع عملت فيه سنوات عدة، وهي في تاريخ القصاص وأثرهم في الحديث النبوي وآراء العلماء فيهم، كنت كتبتها لتكون فصلاً من فصول مقدمتي التي صدرت بها كتاب القصاص

والمذكرين لابن الجوزي الذي حققته ونشرته. فاطلع على هذا الفصل عدد من العلماء والأدباء، فاقترحوا أن تفرد ليعمَّ النفع بها، فنشرتهـا أولاً في مجلة «رسالة الخليج» العدد التاسع السنة الثالثة بتاريخ ١٤٠٣هـ.

ثم رأيت نشرها رسالة صغيرة مستقلة لأن الرسائل الصغيرة مقروءة ذائعة عسى أن تسهم في تبصير الناشئة من المسلمين بالغث والسمين من الرجال، فما كل من رقي منبرا خطيب.. وما أكثر المدعين!!

وكل يدّعي وصلاً بليلى وليلى لا تقر لهم بذاكا

ذلك لأن هذا الضغط الشديد، والسحق الطاحن للإسلام في هذا الزمان أورث ردّ فعل كبيراً عند كثير من الشباب فاتجهوا إلى الإسلام وحرصوا على التزام أحكامه.. فكانت هناك عملية التفاف عليهم من أعداء الإسلام فعمدوا إلى استخدام نفر من القصاص والوعاظ أفسحوا لهم مجالات في المساجد والندوات وغيرها، وأطلقوا عليهم ألقاباً رنانة من نحو: العالم، والداعية وما إلى ذلك.

وكلفوهم بمهمة تفريغ الدعوة الاسلامية من مضمونها وبربطها بهم وبتسخيرها لهم وليس عند عدو

من أعداء الإسلام مانع من أن ينادي المنادون بالاسلام بشرط أن يكون في مفهوم معين وأن يكون مرتبطاً بهم سائراً وفق خططهم.

وأودُّ أن أسوق إلى القراء الكرام عبرة من الماضي سمعتها من والدي رحمه الله وأكرم نزله ـ وكم سمعت منه تغمده الله بالرحمة الحكم العميقة والنظرات النافذة ـ قال رحمه الله تعليقاً على موقف بعض القصاص من معركة انتخابية جرت في بلادنا وكنت يومها صغير السن قال:

(لقد رفع هذا الشيخ القاصّ فلاناً الذي يدعو الناس لتأييده إلى درجة لم يصل إليها سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو يعلم أنه كاذب فيما يقول، ولو كانت له مصلحة مع من يعارضه لما كان منه إلا هذا الموقف).

إن هذا القاصّ كان ذا تأثير كبير على العامة وكان يدعو لتأييد إنسان ليس له أي غيرة على الإسلام ويخالفه في حياته مخالفة علنية واضحة. وقد نجح هو وأمثاله في هذا التدليس إلى حد بعيد.

ولو اتقى الله وآثر الدار الآخرة لما كان منه ما كان ولربما كان الوضع على غير ما انتهى إليه.

إن هذا الماضي الذي كان يضحك فيه على الناس باسم الاسلام يتراءى أنه مقبل على جيلنا الصاعد بألوان وأدوار تتفق وسمة العصر.

إنَّ على الواعين من العلماء أن يحذروا من تكرار المأساة ولكنها على شكل أشد وأفظع.

إن على أبناء أمتنا أن يتعظوا وأن يتبصروا وأن يستمعوا إلى من جرّب قبلهم.

فالسعيد من اتعظ بغيره والشقي من اتعظ بنفسه.

ولسنا نملك إلا أن نقول كلمة الحق مدعمة بالدليل من الكتاب والسنة وواقع الأمة وتاريخها والله يقول الحق وهو يهدي السبيل

ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا.

ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا.

ربنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به.

واعف عنا واغفر لنا وارحمنا انت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين.

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب والحمد لله رب العالمين.

مستشفى الملك عبد العزيز الجامعي

٢١من ذي القعدة سنة ١٤٠٤

وكتبه

محمد بن لطفي الصباغ

القصص والقصاص:

١ ـ القصّ (في اللغة): القطع والتتبع وإيراد الخبر المقصوص.

وقصّ الشعر والصوف: قطعه، والقصّ: أخذ الشعر بالمقصّ.

وأصل القص القطع والقص: فعل القاص إذا قص القصص.

ويقال: قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئاً بعد شيء ومنه قوله تعالى: ﴿وقالت لأخته قصّيه﴾ [1] أي تتبّعي أثره.

والقصة: الخبر وهو القصص. وقصّ عليَّ خبره يقصه قصّاً وقَصصاً أورده.

والقَصص: الخبر المقصوص (بالفتح) وضع موضع المصدر حتى صار أغلب عليه.

والقصّ (في الاستعمال) هو فنّ مخاطبة العامّة ووعظهم بالاعتماد على القصّة، والمقصد من القصص ـ في الأصل ـ مقصد ديني طيب، إذ في إيراد القصة موعظة وعبرة.

---

(١) سورة القصص: ١١.

ومن أجل ذلك نرى القرآن الكريم يقصّ علينا أخبار الأمم السابقة.

قال تعالى: ﴿**لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب**﴾[1]
وقال سبحانه: ﴿**ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر**﴾[2].

والقصة سلاح فعّال، إذا أحسن الانسان استعماله استطاع أن يحقق كثيراً من الخير والاصلاح، لأن النفس ترتاح لسماع القصة وتستمتع، وتتأثر بالمغزى الذي تحويه.

إن القصص الذي يكون في خدمة العقيدة - إن جانَبَ الكذب - سلاح من أسلحة الخير، ولقد قال بعض أهل العلم: القصص جند من جند الله.

والانسان بفطرته يميل إلى القصة لما يرى في سماعها من الأنس والمتعة، فإذا استطاع الداعية أن يستخدم هذه الأداة الممتازة ضمن دائرة الإسلام ولمصلحة الدين والخلق كان القصص محموداً وطيباً[3].
ونحن اليوم في أشد الحاجة إلى وجود القصة الهادفة بالإطار الفني المتعارف عليه، وهناك قصص جيدة تخدم قضية الدين والخلق ،ولكننا نريد الإكثار منها.

---

(١) سورة يوسف: ١١١.

(٢) سورة القمر: ٤.

(٣) كتبت كلمة عن القصة ودورها في خدمة الدعوة، ستراها في كتاب يصدر قريباً إن شاء الله عنوانه «كلمات ونظرات».

والقَاص ـ كما قال ابن الجوزي[1] ـ : هو الذي يتبع القصة الماضية بالحكاية عنها والشرح لها. وذلك القصص. وهو في الغالب مستعمل فيمن يروي أخبار الماضين.

ويحاول ابن الجوزي في كتاب «القصاص والمذكرين» أن يفرّق بين القصص والوعظ والتذكير تفريقاً يرفع من شأن الوعظ والتذكير ويحط من القصص فيقول في تعريف التذكير:

بأنه تعريفُ الخلق نعم الله عز وجل عليهم وحثُّهم على شكره وتحذيرهم من مخالفته.

ويقول في تعريف الوعظ: بأنه تخويف يرقّ له القلب.

ويقول: إن القصص مذموم، والتذكير والوعظ محمودان.

ثم قال بعد أن عرف القصص:

(وهذا لا يذمّ لنفسه لأن في إيراد أخبار السالفين عبرة لمعتبر وعظة لمزدجر. وإنما كره بعض السلف القصص لأحد ستة أشياء).

ثم أوردها وتتلخص بما يأتي:

١ ـ لأن القصص بدعة لم يكن على عهد رسول الله ﷺ .

٢ ـ لندرة صحة أخبار المتقدمين.

٣ ـ لأن القصص يشغل عن قراءة القرآن ورواية الحديث والتفقه في الدين.

---

(١) كتاب «القصاص والمذكرين» صفحة ١٥٧.

٤ ـ لأن القصص في واقعه أفسد قلوب العوام.

٥ ـ لأنَّ في القرآن والسنة من العظة ما يكفي عن غيره مما لم يصح.

٦ ـ لأن معظم القصاص لا يتحرون الصواب.

وليس ابن الجوزي منفرداً بالتفريق بين هذه الكلمات بل إنَّ آدم متز[1] يذكر نقلاً عن «كشف المحجوب»[2] أنَّ الصوفية كانوا يسمّون خطباءهم بهذا الاسم «المذكرين».

ويبدو أنَّ آدم متز وهم إذ اقتنع بأنَّ المذكرين غير القصّاص فقال:

(.. وبدأت الثقة تتحول عنهم إلى طائفة خلفتهم وهي طائفة المذكرين، ويسمى مجلسهم مجلس الذكر)[3]..

وقال في تعليل تسمية مجلس الذكر:

---

(١) «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع» ٢/ ١٠٩.

(٢) وهو كتاب في التصوف ومؤلفه علي بن عثمان الجلابي الهجوي ولد في أواخر القرن الرابع وتوفي في لاهور حوالي سنة ٤٦٥، ويُعَدُّ أقدم مؤلف في التصوف باللغة الفارسية وأول كتاب منظم في الأصول النظرية والعملية للتصوف، وقد نوّه بقيمته المشتغلون بالتصوف من عرب ومستشرقين طبع بالفارسية في لينينغراد ١٩٢٦ثم طبع في طهران ١٩٥٧ وترجمه إلى الانجليزية نيكولسون ونشرت الترجمة ١٩١١ وترجمته إلى العربية الدكتورة إسعاد عبد الهادي قنديل ودرست الكتاب ومؤلفه ونشر المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية بمصر عملها ١٣٩٤ (١٩٧٤).

(٣) «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع» ٢/ ١١١ ينقل ذلك عن المقدسي.

(وقد نشأ مجلس الذكر من قعود بعض الصالحين للتسبيح متنفلين بعد انقضاء الصلاة)[1].

ثم قال: (وقد أجهد المذكر نفسه في أن يظهر بمظهر يكسبه من التقدير ما يزيد على سلفه القاصّ، وأكبر مظهر لذلك أنه لا يتكلم ارتجالاً ومن غير تقيد. بل كان يقرأ من دفتر)[2].

وهذا - في ظني - غير صحيح، لأنها تسميات متعددة لمسمى واحد، ربما فرَّ من تسمية «القصَّاص» من يقوم بهذه المهمة هرباً ممّا لصق بها من ذم. والله أعلم.

ويحسن أن نورد بعض ما ذكره ابن الجوزي عن القصاص في كتبه ونبدأ بكتابه «تلبيس إبليس» ثم نعرّج على «صيد الخاطر» ثم كتاب «السر المعلوم» ثم «الموضوعات».

قال ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»[3].

[ومن تلبيسه عليهم أن يحسّن لهم ازدراء الوعاظ ويمنعهم من الحضور عندهم فيقولون: من هؤلاء؟ هؤلاء قصاص. ومراد الشيطان أن لا يحضروا في موضع يلين فيه القلب ويخشع، والقصاص لا يُذَمُّون من حيث هذا الاسم، لأن الله عز وجل قال: ﴿**نحن**

(١) «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع» ٢/ ١١٢.
(٢) «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع» ٢/ ١١٢.
(٣) «تلبيس إبليس» ١٣٤.

نقصُ عليك أحسن القصص﴾[1] وقال: ﴿فاقصص القصص﴾[2]].

وإنما ذم القصّاص لأن الغالب منهم الاتساع بذكر القصص دون ذكر العلم المفيد، ثم غالبهم يخلط فيما يورده، وربما اعتمد على ما أكثره محال.

فأما إذا كان القصص صدقاً ويوجب وعظاً فهو ممدوح، وقد كان أحمد بن حنبل يقول: (ما أحوج الناس إلى قاصّ صدوق).

ثم قال[3]: [ذكر تلبيسه على الوعاظ والقصاص.

قال المصنف: كان الوعاظ في قديم الزمان علماء فقهاء، وقد حضر مجلس عبيد بن عمير عبدُ الله بن عمر رضي الله عنهما وكان عمر بن عبد العزيز يحضر مجلس القاص. ثم خست هذه الصناعة فتعرض لها الجهال، فبعد عن الحضور عندهم المميزون من الناس، وتعلق بهم العوام والنساء فلم يتشاغلوا بالعلم وأقبلوا على القصص وما يعجب الجهلة، وتنوعت البدع في هذا الفن وقد ذكرنا آفاتهم في كتاب القصاص والمذكرين إلا أننا نذكر هنا جملة:

«فمن ذلك أن قوماً منهم كانوا يضعون أحاديث الترغيب والترهيب ولبس عليهم إبليس بأننا نقصد حث الناس على الخير،

---

(1) سورة يوسف: ٣.

(2) سورة الأعراف: ١٧٦.

(3) «تلبيس إبليس» ١٣٥.

وكفهم عن الشر وهذا افتئات منهم على الشريعة، لأنها عندهم ـ على هذا الفعل ـ ناقصة تحتاج إلى تتمة، ثم قد نسوا قوله ﷺ : «من كذب عليَّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» ومن ذلك أنهم تلمحوا ما يزعج النفوس ويطرب القلوب ، فَنَوَّعوا فيه الكلام، فتراهم ينشدون الأشعار الرائقة الغزلية في العشق، ولبَّس عليهم بأننا نقصد الاشارة إلى محبة الله عز وجل، ومعلوم أن عامة من يحضرهم العوام الذين بواطنهم مشحونة بحب الهوى فيضل القاص ويُضل.

ومن ذلك ما يظهر من التواجد والتخاشع زيادة على ما في قلبه، وكثرة الجمع توجب زيادة تعمل، فتسمع الناس بفضل بكاء وخشوع، فمن كان منهم كاذباً فقد خسرالآخرة ،ومن كان صادقاً لم يسلم صدقه من رياء يخالطه.

ومنهم من يتحرك الحركات التي يوقع بها على قراءة الألحان، والألحان التي أخرجوها اليوم مشابهة للغناء، فهي إلى التحريم أقرب منها إلى الكراهة، والقارىء يطرب، والقاصّ ينشد الغزل مع تصفيق بيديه، وإيقاع برجليه، فتشبه السكر، ويوجب ذلك تحريك الطباع وتهييج النفوس، وصياح الرجال والنساء، وتمزيق الثياب، لما في النفوس من دفائن الهوى، ثم يخرجون فيقولون: كان المجلس طيباً، ويشيرون بالطيبة إلى ما لا يجوز.

ومنهم من يجري في مثل تلك الحالة التي شرحناها، لكنه ينشد أشعار النوح على الموتى ويصف ما يجري لهم من البلاء ويذكر الغربة ومن مات غريباً، فيبكي بها النساء ويصير المكان كالمأتم،

وإنما ينبغي أن يذكر الصبر على فقد الأحباب لا ما يوجب الجزع.

ومنهم من يتكلم في دقائق الزهد ومحبة الحق سبحانه، فلبَّس عليه إبليس أنك من جملة الموصوفين بذلك، لأنك لم تقدر على الوصف حتى عرفت ما تصف وسلكت الطريق. وكشف هذا التلبيس أن الوصف علم والسلوك غير العلم.

ومنهم من يتكلم بالطامات والشطح الخارج عن الشرع ويستشهد بأشعار العشق وغرضه أن يكثر في مجلسه الصياح ولو على كلام فاسد.

وكم منهم من يزوق عبارة لا معنى تحتها.

وأكثر كلامهم اليوم في موسى والجبل، وزليخا ويوسف، ولا يكادون يذكرون الفرائض ولا ينهون عن ذنب.

فمتى يرجع صاحب الزنا ومستعمل الربا؟ وتعرف المرأة حق زوجها؟ وتحفظ صلاتها؟.

هيهات!!! هؤلاء تركوا الشرع وراء ظهورهم ولهذا نفقت سلعهم لأن الحق ثقيل والباطل خفيف.

ومنهم من يحث على الزهد وقيام الليل، ولا يبين للعامة المقصود، فربما تاب الرجل منهم وانقطع إلى زاوية، أو خرج إلى جبل فبقيت عائلته لا شيء لهم.

ومنهم من يتكلم في الرجاء والطمع من غير أن يمزج ذلك بما يوجب الخوف والحذر فيزيد الناس جرأة على المعاصي. ثم يقوي ما

ذكر بميله الى الدنيا من المراكب الفارهة، والملابس الفاخرة، فيفسد القلوب بقوله وفعله.

وقال ابن الجوزي في «تلبيس إبليس»[1]:

[وقد يكون الواعظ صادقاً قاصداً للنصيحة إلا أن منهم من أشرب الرئاسة قلبه مع الزمان، فيحب أن يعظم، وعلامته أنه إذا ظهر واعظ ينوب عنه أو يعينه كره ذلك، ولو صح قصده لم يكره أن يعينه].

وقال: [ومن القصاص[2] من يخلط في مجلسه الرجال والنساء، وترى النساء يكثرن الصياح وجداً على زعمهنّ، فلا ينكر ذلك عليهن جمعاً للقلوب عليه.

ولقد ظهر في زماننا هذا من القصاص ما لا يدخل في التلبيس لأنه أمر صريح من كونهم جعلوا القصص معاشاً يستمنحون به الأمراء والظلمة، والأخذ من أصحاب المكوس، والتكسب به في البلدان.

وفيهم من يحضر المقابر فيذكر البلى وفراق الأحبة فيبكي النسوة ولا يحث على الصبر.

وقد يلبس إبليس على الواعظ المحقق فيقول له: مثلك لا يغظ، وإنما يعظ مُتَيَقِّظ. فيحمله على السكوت والانقطاع وذلك من دسائس إبليس، لأنه يمنع فعل الخير، ويقول: إنك تلتذ بما تورده وتجد لذلك راحة، فربما دخل الرياء في قولك، وطريق الوحدة

---

(١) «تلبيس إبليس» ١٣٦.

(٢) «تلبيس إبليس» ١٣٧.

أسلم. ومقصوده بذلك سد باب الخير وعن ثابت قال: كان الحسين في مجلس فقيل للعلاء: تكلم.

فقال: أوهناك أنا؟ ثم ذكر الكلام ومؤنته وتبعته.

قال ثابت: فأعجبني.

قال: ثم تكلم الحسين فقال: وإننا هناك. يود الشيطان أنكم أخذتموها عنه فلم يأمر أحد أحداً بخير ولم ينهه عن شر].

وقال ابن الجوزي في «صيد الخاطر»[1].

[وقد كان جماعة من السلف يرون تخليط القصاص، فينهون عن الحضور عندهم، وهذا على الاطلاق لا يحسن اليوم، لأنه كان الناس في ذلك الزمان متشاغلين بالعلم، فرأوا حضور القصص صاداً لهم، واليوم كثر الاعراض عن العلم فأنفع ما للعامي مجلس الوعظ يرده عن ذنب، ويحركه إلى توبة، وإنما الخلل في القاص فليتق الله عزّ وجل]

وقال ابن الجوزي في «صيد الخاطر»:

[... ولقد أدخل المتزهدون في الدين ما ينفر الناس منه، حتى إنهم يرون أفعالهم فيستبعدون الطريق، وأكثر أدلة هذه الطريق القصاص فإن العامي إذا دخل مجلسهم وهو لا يحسن الوضوء كلموه بدقائق الجنيد وإشارات الشبليّ، فرأى ذلك العامي أن الطريق الواضح لزوم زاوية، وترك الكسب للعائلة، ومناجاة الحق في خلوة على زعمه، مع كونه لا يعرف أركان الصلاة، ولا أدّبه العلم ولا قوّم

(١) «صيد الخاطر» ١٠٠.

أخلاقه شيء من مخالطة العلماء فلا يستفيد من خلوته إلا كما يستفيد الحمار من الإصطبل، فإن امتد عليه الزمان في تقلله زاد يبسه، فربما خايلت له «الماليخوليا»[1] أشباحاً يظنهم الملائكة ثم يطأطىء رأسه ويمد يده للتقبيل.

فكم رأينا من أكار ترك الزرع وقعد في زاوية، فصار إلى هذه الحالة فاستراح من تعبه، فلو قيل له: عد مريضاً قال: ما لي عادة، فلعن الله عادة تخالف الشريعة.

فيرى العامة بما يورده هؤلاء القصاص أن طريق الشرع هذه لا التي عليها الفقهاء فيقعون في الضلال][2].

وقال ابن الجوزي في كتاب «السر المعلوم»[3]:

[لا يصلح لإيداع الأسرار كل أحد، ولا ينبغي لمن وقع بكنز أن يكتمه مطلقاً، فربما ذهب هو ولم ينتفع بالكنز.

وكما أنه لا ينبغي للعالم أن يخاطب العوام بكل علم فينبغي أن يخص الخواص بأسرار العلم لاحتمال هؤلاء ما لا يحتمله أولئك.

وقد عُلم تفاوت الأفهام وقد قال تعالى: ﴿**ولو ردوه إلى**

(١) جاء في كتاب «تسهيل المنافع في الطب والحكمة» تأليف إبراهيم الأزرق ص ١٦٩: (الماليخوليا ضرب من الجنون، وهو أن يحدث بالإنسان أفكار رديئة فيغلبه الخوف والحزن وربما صرع وربما نطق بتلك الأفكار وخلط في كلامه. قاله في فقه اللغة). وقال الأستاذ الدكتور العوا: إن أهل مصر يقولون مناخوليا للمجنون.

(٢) «صيد الخاطر» ١١٨ ـ ١١٩.

(٣) نقلاً عن «الآداب الشرعية» ٢/ ٩٥.

الرسول . . ﴾ الآية وقال ﴿ **وما يعقلها إلاّ العالمون**﴾ وقال: ﴿ **ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة** . . ﴾ الآية وقال عليه السلام «لِيَلِنِي منكم أولو الأحلام والنهي» وقال أبو هريرة رضي الله عنه: سمعت من رسول الله ﷺ وعائين بثثت أحدهما ولو بثثت الآخر لقطع هذا الحلقوم.

وهذا يشكل فيقال: كيف كتم هذا العلم؟

ولا أحسب المكتوم إلا مثل قوله «إذا بلغ بنو أبي العاص ثلاثين رجلاً جعلوا مال الله دولاً» ومثل ذكر قتل عثمان وما سيظهر من الفتن. ومن التغفيل تكلم القصاص عند العوام الجهلة بما لا ينفعهم، وإنما ينبغي أن يخاطب الإنسان على قدر فهمه.

ومخاطبة العوام صعبة، فإن أحدهم ليرى رأياً يخالف فيه العلماء ولا ينتهي، وقد رأينا أنَّ امرأة قالت لولدها من غير زوجها: هذا زوجي كافر.

وقال: وكيف؟

قالت: طلقني بكرة وضاجعني في الليل.

فقال: أنا أقتله.

وما علم أن الرجعية(١) زوجة وأنه أشهد على ارتجاعها من غير علمها أو أنه يعتقد أن الوطء رجعة!!

(١) أي المطلقة طلاقاً رجعياً غير بائن، وهي المطلقة للمرة الأولى أو الثانية قال تعالى: ﴿ **الطلاق مرتان**﴾ البقرة: ٢٢٩.

ورأى رجل رجلاً يأكل في رمضان فهم بقتله. وما علم أنه مسافر!!

فالويل للعلماء من مقاساة الجهلة].

وقال ابن مفلح متحدثاً عن ابن الجوزي: [ثم روى بإسناده وهو ضعيف عن ابن عباس مرفوعاً:

«ما أنت محدّث قوماً حديثاً لم تبلغه عقولهم إلا كان على بعضهم فتنة» وكان ابن عباس يسرّ إلى قوم ولا يحدّث قوماً].

وقال عمن يعظ العوام:

[ليحذر الخوض في الأصول فإنهم لا يفهمون ذلك، لكنه يوجب الفتن وربما كفروه مع كونهم جهلة. وينبغي أن يمدح جميع الصحابة رضي الله عنهم ولا يتعرض بتخطئة أحد منهم، فقل أن يرجع ذو هوى عن عصبيته إن كان عامياً.

فما يستفيد مكلم الناس بما قد رسخ في قلوبهم غيره إلا البغض والوقيعة فيه..][1].

وقال ابن الجوزي في «الموضوعات»: (القسم السابع قوم شقّ عليهم الحفظ.. وربما رأوا أن الحفظ معروف فأتوا بما يغرب مما يحصّل مقصودهم فهؤلاء قسمان: أحدهما القصاص، ومعظم البلاء منهم يجري لأنهم يريدون أحاديث تنفق وترقق، والصحاح تقل في

---

(١) انظر «الآداب الشرعية» ٢/ ٩٥.

هذا . .[1] والقسم الثاني الشحاذون فمنهم قصاص ومنهم غير قصاص)[2].

ولابن الجوزي كلام طويل على القصاص تجده في كتابه «القصاص والمذكرين».

هذا وابن الجوزي كان من كبار القصاص وقد بدا في كتاب القصاص والمذكرين متعاطفاً مع القصاص مائلاً إليهم، وإن كان الرجل بقي في دائرة الانصاف لم يجاوزها إلى التعصب والتحزب والمعاندة فلقد ذكر مساوئهم ونقائصهم، وذكر إساءة بعضهم للمعاني الكريمة الطيبة وللأغراض النبيلة السامية التي يؤديها الوعظ وتذكير الناس ودعوتهم إلى الخير.

ومن كتبه التي عني فيها بموضوع القصص كتاب «المدهش» الذي ترى تأثر ابن الجوزي فيه بالصوفية والمتصوفين واضحاً جداً[3].

ومهما يكن من أمر فإن ابن الجوزي كان ميالاً إلى القصّاص، وإنني أحسب أنه كان معذوراً عندما يبدو متحمساً بعض الشيء لجانب القصص والتذكير لأن ابن الجوزي كان واعظاً فصيحاً وداعية موفقاً خَبَرَ موضوع الاتصال بالعامة وخرج بنتائج قيمة من هذه التجربة سجّل بعضها في هذا الكتاب.

ولأن الواقع الأليم الذي كان يعاني منه المسلمون بحاجة إلى

---

(١) «الموضوعات» ١/ ٤٤.

(٢) «الموضوعات» ١/ ٤٦.

(٣) انظر صفحة ١٧٨ من «المدهش».

إصلاح وتذكير وإرشاد. ونظرة منّا إلى واقع المسلمين اليوم من غياب الدعاة إلى الله الصادقين، وبقاء الدجالين يصولون ويجولون تقنعنا بحاجة الناس إلى من يذكرهم بالله ويوقظ فيهم معاني الخير، وليس كما يتصور بعض الناس الذين يذهبون إلى القضاء على القصص والوعظ من حيث هو.

إن المجتمع في حاجة مستمرة إلى من يذكر أبناءه بالله.. ذلك لأن الغفلة والشهوة والشيطان عوائق ضخمة تقف حائلاً دون سلوك الصراط السويّ أو المحافظة على المستوى الرفيع الكريم الذي يقيمه الاسلام في المجتمع.

فكيف إذا أضفنا الى ذلك ما كان في أيام ابن الجوزي من تسلط النصارى على بلاد المسلمين ومهاجمتهم بالحملات الصليبية الواحدة تلو الأخرى، وتسلط الشيعة على أهل السنة إن هذا يضاعف الحاجة الى قيام مذكرين ووعاظ.

وإذا كان هؤلاء الوعاظ والمذكرون منحرفين فالواجب يقضي بإصلاحهم وقيام ناس فضلاء بهذه المهمة.

إننا اليوم في العالم الاسلامي نشكو غزو الحضارة الأوروبية لبلادنا وعاداتنا وفكرنا ونشكو خضوع عدد من الأنظمة التي تحكم بلاد المسلمين إلى اعتبارات جاهلية تعد التذكير بالله جريمة يعاقب عليها الحاكمون الدعاة الى الله.

هذا وقد ذكر ابن الجوزي الشروط التي يجب أن تتوافر في القاص[1] وهي:

١ ـ العلم وإتقان فنونه.

٢ ـ معرفة الحديث وتمييز صحيحه من سقيمه.

٣ ـ العلم بالتاريخ وسير السلف وأخبار الزهّاد.

٤ ـ معرفة الفقه معرفة جيدة.

٥ ـ معرفة اللغة العربية معرفة جيدة.

٦ ـ تقوى الله والتخلص من الطمع.

٧ ـ العمل بما يدعو الناس إليه.

٨ ـ الزهد في الدنيا وترك المظاهر الفخمة.

وقريب من ذلك ما ذكره نصر بن محمد السمرقندي (المتوفى ٣٧٥ هـ) في كتابه «بستان العارفين» من صفات المذكر إذ قال: (أول ما يحتاج إليه المذكر.. أن يكون صالحاً في نفسه.. ورعاً.

وينبغي أن لا يطول المجلس فيمل الناس.

وينبغي.. أن يكون متواضعاً ليناً ولا يكون متكبراً ولا فظاً غليظاً.. وإذا أراد أن يخبر الناس بشيء من فضائل الصلاة والصيام والصدقة فينبغي أن يعمل به أولاً..

(١) «كتاب القصاص والمذكرين» ص ١٧٩.

وينبغي للمذكر أن يكون عالماً بتفسير القرآن والأخبار وأقاويل الفقهاء . .

وينبغي للمذكر إذا حدّث الناس أن لا يقبل بوجهه على واحد دون آخر بل يعمّهم . .

ولا ينبغي للمذكر أن يكون طماعاً، لأن الطمع يذل الانسان ويذهب بهاء الوجه والعلم ولو أهدى إليه إنسان من غير مسألة فلا بأس أن يقبل هديته .

وينبغي أن يكون في مجلسه الخوف والرجاء) .

فإن كان المذكر يحتاج إلى تطويل المجلس فيستحب له أن يجعل في خلال مجلسه كلاماً يستظرفه السامعون ويبتسمون له، فإن ذلك يزيدهم نشاطاً وإقبالاً على السماع[1] .

وذكر السمرقندي شيئاً من آداب المستمعين فقال :

(ينبغي أن يقبل المستمع إلى وجه المذكر . . ولا يشتغل بشيء غيره . . ويستحب للمستمعين عند فصل كل حديث أن يقولوا (صدقت) أو(أحسنت)حتى يكون المذكر راغباً في الحديث وأن يصلي المستمع عند سماع اسم محمدﷺ وأن ينزع وسواس الشيطان عن قلبه ولا ينام في حال المجلس . .)[2] .

---

(١) «بستان العارفين» على هامش «تنبيه الغافلين» من ص١٦ حتى ١٨ طبع المطبعة اليوسفية بمصر .

(٢) «بستان العارفين» ١٨ .

وكذلك فقد ذكر ابن الأخوة قريباً من هذه الشروط[1].

وذكر السبكي أموراً يجب على الخطيب والواعظ والقاص أن يتبعها، وفرّق بين هؤلاء، فالخطيب هو الذي يخطب الناس يوم الجمعة، والقاص ـ عنده ـ هو الذي يجلس في الطرقات مذكراً. قال رحمه الله:

(المثال الستون الخطيب: وعليه أن يرفع صوته بحيث يسمعه أربعون نفساً من أهل الجمعة، فلو خطب سراً بحيث لم يُسمِعْ غيره لم تصح على الصحيح.. وأما الالتفات في الخطبة، والدق على درج المنبر في صعوده، والدعاء إذا انتهى صعوده قبل أن يجلس والمجازفة في وصف السلاطين عند الدعاء لهم، والمبالغة في الإسراع في الخطبة الثانية فكل ذلك مكروه ولا بأس بالدعاء للسلطان بالصلاح ونحوه، فإن صلاحه صلاحٌ للمسلمين، ولا يطيل الخطبة على الناس.. ولا يأتي بألفاظ قلقة يصعب فهمها على غير الخاصة، بل يذكر الواضح من الألفاظ ولا يتكلف السجع..)[2].

وقال: (المثال الحادي والستون الواعظ: وعليه نحو ما على الخطيب، فليذكر بأيام الله، وليُخف القوم من الله، وينبئهم بأخبار السلف الصالحين وما كانوا عليه. وأهم ما ينبغي له وللخطيب أن يتلو

---

(١) «معالم القربة في أحكام الحسبة» لمحمد بن محمد بن الأخوة تحقيق روبن ليوي طبع كمبريج سنة ١٩٧٣ من ص١٧٩ حتى ١٨١.

(٢) «معيد النعم» للسبكي ١١٢.

على نفسه قوله تعالى: ﴿أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم﴾[1] ويتذكر قول الشاعر[2]:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله
عار عليك إذا فعلت عظيم

واعلم أن الكلام إذا لم يخرج من القلب لم يصل الى القلب. فكل خطيب وواعظ لا يكون عليه سيما الصلاح قلّ أن ينفع الله به)[3].

وقال: (المثال الثاني والستون القاص: وهو من يجلس في الطرقات يذكر شيئاً من الآيات والأحاديث وأخبار السلف. وينبغي له ألا يذكر إلا ما يفهمه العامة ويشتركون فيه من الترغيب في الصلاة والصوم وإخراج الزكاة والصدقة ونحو ذلك.

ولا يذكر عليهم شيئاً من أصول الدين وفنون العقائد[4] وأحاديث الصفات فإن ذلك يجرهم إلى ما لا ينبغي)[5].

---

(١) سورة البقرة ٤٤.

(٢) هو أبو الأسود الدؤلي كما ذكر ذلك بعض أهل العلم منهم الأعلم في «شرحه» ونسبه سيبويه في «الكتاب» للأخطل ونسبه بعضهم للمتوكل الكناني (وانظر تعليق الأستاذ محمد محيي الدين عبد الحميد في «شرح قطر الندى» ص ٧٧).

(٣) «معيد النعم» ١١٣.

(٤) يريد ألا يذكر للعامة مسائل العقيدة كما جاءت في علم الكلام، فإن ذلك ربما يعرضهم إلى الفتنة. هذا والسبكي أشعري شديد الحساسية بالنسبة إلى أحاديث الصفات.

(٥) «معيد النعم» ١١٣.

وذكر السبكي اسماً آخر للقاص وهو (قارىء الكرسي)[1] وفرّق بينه وبين القاصّ بما يأتي:

ـ القاص يقرأ من حفظه وقارىء الكرسي يقرأ من كتاب.

ـ القاص يقف وربما جلس والقارىء يجلس. القاص يكلم الناس في الطريق والقارىء يكون في المسجد أو المدرسة أو الخانقاه.

(المثال الثالث والستون قارىء الكرسي: وهو من يجلس على كرسي يقرأ على العامة شيئاً من الرقائق والحديث والتفسير.

فيشترك هو والقاص في ذلك.

ويفترقان في أن القاص يقرأ من صدره وحفظه وربما جلس، ولكن جلوسه ووقوفه في الطرقات. وأما قارىء الكرسي فيجلس على كرسي في جامع أو مسجد أو مدرسة أو خانقاه ولا يقرأ إلا من كتاب.

وينبغي له مثل ما ينبغي للقاص من قراءة ما تفهمه العامة ولا يخشى عليها منه..)[2].

وقال ابن الاخوة:

(والفقهاء والمتكلمون والأدباء والنحاة يسمون أهل الذكر والوعظ قُصّاصاً)[3].

---

(١) أحسب أن ما شاع في الجامعات الأوروبية وأخذته الجامعات العربية عنها من اصطلاح (أستاذ كرسي) مأخوذ من هذا المصطلح أخذه الغرب عن المسلمين.

(٢) «معيد النعم» ١١٤.

(٣) «معالم القربة في أحكام الحسبة» ص١٨٠.

وقال طاشكبري زاده:[ومنها الذكر والتذكير، وقد كان في العصر الأول يطلق على التكلم في علم الآخرة والتذكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات النفس والأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها، ويذكر بالآء الله سبحانه ونعمائه، وتقصير العبد في شكره، ويعرف حقارة الدنيا وعيوبها. وتصرمها وقلة عهدها، وخطر الآخرة، وأهوالها، فهذا هو التذكير المحمود شرعاً الذي قد ورد الحث عليه شرعاً، فنقل ذلك الآن إلى ما ترى من حال الوعاظ، وما يواظبون عليه من القصص والأشعار والشطح والطامات. وأما القصص فهو بدعة وقد ورد نهي السلف عن الجلوس إلى القصاص، لأنهم لو اقتصروا على القصص الوارد في القرآن لأصابوا، لكنهم غيروا وزادوا ونقصوا حتى أن منهم من سمح لنفسه وضع الحكايات المرغبة في الطاعات ويزعم أن قصده منه دعوة الخلق إلى الحق، وهذه من نزغات الشيطان فإن في الصدق مندوحة عن الكذب، وأمّا الأشعار فأكثرها في الوعظ مذموم. . ومجالس الوعظ لا تحوي إلا أجلاف العوام وبواطنُهم مشحونةٌ بالشهوات فتحرك الأشعار. . ما هي مستكنة في قلوبهم من نيران الشهوات فيزعقون ويتواجدون على تصور الفساد اللهم إلا إذا كانت الأشعار مشتملة على المواعظ والحكم. .][1]. .

وواضح أن القائلين بهذا التفريق يعتمدون اعتماداً كلياً على هذه الكلمات(القصص، الوعظ، التذكير) ودلالتها، ويشتقون منها

---

(١) «مفتاح السعادة» ٣/ ١٢ - ١٣.

فروقاً، إلا أنه كثيراً ما يطلق القصص على الوعظ والتذكير أو الوعظ على القصص والتذكير.

ولو جاريناهم في تفريقهم فذهبنا إلى أن هناك أنواعاً ثلاثة ـ مع أن هذه الثلاثة أسماء لمسمى واحد ـ لو جاريناهم في ذلك لكان يجب أن نقرر أن كل نوع من هذه الأنواع فيه الجيد وفيه الرديء فالجيّد ما توافرت فيه صفات معينة من الإخلاص والحكمة وتحري الصحيح الثابت.

والرديء ما لم تتوافر فيه تلك الصفات. وهو عندئذ لا يخلو من أذى وضرر ويستحق الذم.

فكم نرى وعاظاً جهلة لا يتعرضون إلى الأقاصيص هرباً من عنوان (القصاص) ولكنهم يملؤون كلامهم بالأحاديث الموضوعة والنظرات الخاطئة، والأسلوب المنحرف.. وكلّ ذلك يجعل أثرهم في الأمة سيئاً.

* * *

إنَّ (الوعظ) و(التذكير) و(القصص) كلها تندرج تحت معنى واحد هو الدعوة الى الله بالكلام أو الخطابة ويبدو أن الاسم الذي شاع في هذه الأيام هو (التدريس) و(الخطبة) و(الوعظ) و(التوجيه) و(الإرشاد).

وقد سبق أن ذكرت أن هذه العناوين الثلاثة (الوعظ والتذكير والقصص) قد تتداخل مفاهيمها والعبرة لاستقامتها. وأريد أن أقرر ههنا أن الخطابة والتدريس والوعظ والإرشاد جانب من جوانب الدعوة، وليس هو الدعوة كلها.

ويخطىء كثير من الناس عندما يظنون أنهم أدّوا واجبهم في الدعوة الى الله لأنَّ أحدهم ألقى درساً في المسجد، أو ارتجل خطبة في حفل أو ألقى موعظة في مجمع.

إن هذا الجانب مهم ولا يجوز أن يغفل تحت أي شعار، ولكنه ليس هو الدعوة التي تقوم على تكوين الإنسان المسلم وصياغة عقليته التي تنظر إلى تشريعات الاسلام على أنها شيء واحد.

وقد يظن ظانٌّ أنَّ موضوع إفساد القصاص لم يعد موجوداً الآن،وإنما هو أمر تاريخي بحت لا يتصل اليوم بواقع الحياة والناس.

وهذا ظن خاطىء بعيد عن الصواب، ذلك لأن هؤلاء القصاص ما زالوا مع الأسف[1] موجودين بأسماء أخرى، ذكرناها آنفاً، يعيثون في الارض فساداً.

ولئن كان المخادعون الدجالون يظهرون تحت عنوان (القصاص) فيما مضى إنهم يظهرون في أيامنا هذه تحت عنوان:

(الداعية والموجه والمربي والأستاذ والكاتب والمفكر) وما إلى ذلك من الألقاب!!

ويبدو أن المجاملة التي ليست في محلها أسهمت في تأخير كشف حقيقة هذا النفر..

---

(١) إن هذا الذي نأسف لوجوده يسر كثيراً من الذين يبحثون عن أصول القصة من الناحية الفنية ذلك لأن هؤلاء القصاص باختراعهم لقصص دينية أبدعها خيالهم يمثلون الخطوة الأولى لنشوء القصة الفنية!

فما يزال كثير من الناس لا يعرفون هؤلاء القوم على حقيقتهم، ويخلطون بين هؤلاء المرتزقين وبين الدعاة الى الله الواعين الصادقين. وقد يكون مما ساعد على مجاملتهم والسكوت عنهم أمران:

أنهم محسوبون على الدين، والدين يلقى الآن هجمة شرسة، ويتعرض لعدوان أثيم مخطط مدروس في كثير من بلدان المسلمين، فأي هجوم عليهم ينعكس على الدين الحق في هذه البلدان مما يجعل الغُيُرَ مُضطرين إلى السكوت عنهم على مضض وحرقة.

ـ أن المجال فارغ والساحة خالية، فنحن الآن لا نجد من الدعاة الواعين العلماء أصحاب الفكر السليم النظيف البعيد عن الخرافة إلا عدداً يسيراً لا يكاد يستطيع أن يصنع شيئاً. وهؤلاء المنحرفون الانتهازيون المبطلون يتركون أثراً حسناً في الشباب والشابات، فيضع هذا الواقع المرء الواعي في موقف حرج: كيف يقطع هذا الخير الذي يلمسه من الناس المتصلين بهم؟.

ولكن هذا الوضع لا يجوز أن يدوم.

لا بُدَّ من أن تقوم حركة تعنى بالدعوة، وتكون هذه الحركة قائمة على أساس متين من الوعي والصدق والصفاء والبعد عن الانحراف والتدجيل والخرافات.

إنَّ نجاح هؤلاء المخرفين ينبغي أن يُغري الصادقين بالعمل.. لا أن يجعلهم يتركون المجال لأولئك المنحرفين، وكشف الدجالين ينبغي أن يكون بالحكمة ومراعاة المصلحة العليا للدعوة إلى الله حتى يحال دون استغلال هذا الكشف من قبل أعداء الاسلام.

إن هذا الوضع لا يجوز أن يحكم رجال الفكر وعلماء الاسلام في بلاد المسلمين جميعاً بل إنني أرى أن صدور بعض الدراسات عن القصاص وبيان انحرافاتهم وعرض الموضوع بالمنهج العلمي بعيداً عن العواطف والانفعالات والخطابيات أمرٌ نافع أعظم النفع وربما كان وسيلة لإصلاح الصادقين من الوعاظ والقصَّاص.

وقد يكون الموقف السديد أن تصدر دراسات عن القصَّاص في الماضي تبين الأثر السيء الذي كان منهم على السنة وتعرض صفاتهم. وأن تصدر في الوقت نفسه دراسات تبين صفات الدعاة إلى الله التي يجب أن يتحلوا بها.

قد يكون في ذلك توضيح لمعالم الطريق الحق في هذا الموضوع دون أن يحدث ذلك مضاعفات تسيء الى المعاني الخيرة التي يحرص عليها المخلصون.

ولكن الشيء الذي لا بدَّ من أن نقرره بحرارة هو أنَّ الأعمال السلبية وحدها لا تكفي. . بل لا بدَّ من أن يكون بالاضافة إليها أمر إيجابي. إن الذي تنهاه عن الركون إلى الدجالين يسألك:

أين أذهب؟ هذا يدلني على الله ويذكرني بالواجبات، أفأتركه للأغلاط التي ذكرت وأذهب إلى من يسهل عليَّ دخول جهنم؟ .

إننا إذا كنا صادقين في دعوتنا فلا بد من الأخذ بأيدي أولئك المخدوعين المغرَّر بهم الى عمل إيجابي سليم.

ولا يعني هذا أن نسكت عن بيان الحق، إن أشد الناس إساءة

للدين هم أولئك الذين يستغلونه لمنافعهم ومصالحهم، فهم على الرغم من حملهم لشعارات دينية مستعدون الاستعداد كله ليضعوا هذا الدين العظيم في خدمة رجل أو دولة أو جهة أو مخططات إن كان في ذلك نفع لهم.

ومن هنا غدت الحاجة مُلحَّةً لفضح هؤلاء الدجالين وتحذير الناس منهم بالحكمة والأسلوب المناسب.

وهناك أمر مهم نود أن نقرره، وهو أن هذا الجانب القاتم كان جانباً هزيلاً ضئيلاً ومؤقتاً في تاريخنا على طوله، وكان يقابله جانب الحق والصراحة والجرأة ويصارعه وكانت الغلبة في كثير من الأحيان للجانب الأخير. وهذا الأمر نعتز به اعتزازاً كبيراً وهو أثر من آثار الاسلام العظيم في صياغة الانسان.

إننا لا نستطيع أن نغفل أولئك الشجعان الأبطال من أمثال الاوزاعي وابن حنبل وابن تيمية والعز بن عبد السلام والنووي وسيد قطب.. وكثير غيرهم لقد صبر هؤلاء ومئات أمثالهم وصابروا وقدّم بعضهم حياته طيبة بها نفسه من أجل الحق والجرأة في قول كلمة الشرع.

أنواع القصص:

يحكي المقريزي عن الليث بن سعد أن القصص قصصان: قصص العامة، وقصص الخاصة، فأما قصص العامة فهو الذي يجتمع إليه النفر من الناس للقاصّ، يعظهم ويذكرهم قال: (وذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه).

وأما قصص الخاصة فهو الذي جعله معاوية، إذ ولّى رجلاً على القصص، فكان إذا سلم من صلاة الصبح جلس وذكر الله عز وجل وحمده وصلى على النبي ﷺ ودعا للخليفة ولأهل ولايته ولحشمه ولجنوده ودعا على أهل حربه وعلى المشركين[1] يفهم من هذا الكلام أنّ القصص نوعان: قصص رسمي تسمح به الدولة وعندئذ لا بد أن يكون في خدمتها كما أشار إلى ذلك المقريزي. وقصص تطوعي شخصي يقف فيه القاص بين نفر من الناس فيعظهم ويذكرهم.

ولا نرى قول المقريزي: (وذلك مكروه لمن فعله ولمن استمعه) قولاً صحيحاً، فلماذا يكون مكروهاً إذا كان القاصّ عالماً صادقاً في قوله من أهل البصر والوعي والحماسة للخير؟.

إن هذا الحكم غير صحيح. ولو قال: إن القصص القائم على الدجل والخرافة قصص مؤذ ضار وهو مكروه لمن يقوم به ولمن يستمع إليه لكان كلامه صحيحاً.

وهناك تقسيم آخر للقصص: إذ ينقسم إلى نوعين: قصص ديني وقصص شعبي.

---

(١) «الخطط» للمقريزي ٢/ ٢٥٣.

أما القصص الديني ـ وهو موضوع حديثنا ـ فمادته القصص الدينية الواردة في الكتاب والسنة والسيرة وكتب التفسير وشروح الحديث والاسرائيليات وكتب التصوف. وهو يقصد إلى الوعظ والاصلاح وترقيق القلب والتخويف من المعاصي، والتحذير من الانسياق وراءَ الدنيا.

وأما القصص الشعبي فمادته القصص التاريخي والأدبي والحكايات الشعبية المحبوكة والنوادر المسلية[1] وهذا النوع من القصص كان يحدث في الطرق ثم صارت ندواته تعقد في المقاهي وقد أدركنا شيئاً من القهوات القديمة في بلدنا دمشق ،وكثيراً ما كان القاص (الحكواتي) يقرأ من كتاب، وكانت القصص التي يرددها هؤلاء القصاصون قصصاً شعبية مثل قصة عنترة وقصة أبي زيد الهلالي وقصة الملك الظاهر . . وأمثال ذلك.

والروح التي تصبغ هذا القصص روح دينية مشبعة بالعواطف الاسلامية والمعاني الكريمة. . ويبدو أن هذين النوعين من القصص كانا مهنة يعيش أربابها من العمل فيها، فهؤلاء يجمعون وأولئك يجمعون.

---

(١) وهذا موضوع طريف لم يبحث حتى الآن بحثاً وافياً، وقد صدر في بغداد سنة ١٩٦٦ دراسة بعنوان «القصص في العصر الاسلامي» لعبد الهادي الفؤادي، وطبعت في مطبعة دار الزمان ببغداد، ثم صدر في الكويت ١٩٧٢ دراسة بعنوان «القصص والقصاص في الأدب الإسلامي» للدكتورة وديعة طه النجم، أصدرتها وزارة الإعلام في الكويت. طبعت في مطبعة حكومة الكويت.

ولئن انقرض القصاص الشعبيون بسبب ما جدّ في حياة الناس من أجهزة ترفيه متقدمة إن النوع الأول ما زال قائماً في المساجد حتى يومنا هذا.



ومكان القصص الديني هو المسجد والطريق.

جاء في «معيد النعم» للسبكي:

(القاصّ هو من يجلس في الطرقات يذكر شيئاً من الآيات والأحاديث وأخبار السلف)[1].

ويفهم من هذا النصّ أن القاصّ لا يجلس إلاّ في الطرقات وقد يكون هذا في عصر السبكي، بينما في العصور السابقة كان يجلس في المسجد والطريق، وكانوا يختارون المساجد الكبرى.

وجاء في «تاريخ الخلفاء» للسيوطي:

(وفي أول سنة استخلف فيها المعتضد بالله منع الوراقين من بيع كتب الفلاسفة وما شاكلها ومنع القصاص والمنجمين من القعود في الطريق)[2].

كان ذلك في سنة **٢٧٩** هـ وفي هذا النّص ما يدل على أن القصاص كانوا يقعدون في الطريق وعلى أن منعهم كان من

---

(١) «معيد النعم» ١١٣.

(٢) «تاريخ الخلفاء» ٣٧١.

المكرمات التي تذكر للحكام وعلى أنهم كانوا مقرونين بالمنجمين.

وأما زمانه فهو الوقت الذي يجتمع فيه أكبر عدد من الناس، وأنسب هذه الأوقات بعد صلاة الجمعة وبعد العصر والصبح وفي شهر رمضان وبعد كثير من الصلوات.

وكان القاص محبوباً من قبل العامة لأنه يسرهم بقصصه المسلّي ولا سيما إذا كان من أهل البيان والفصاحة. وكان يتمتع بنفوذ كبير، وإذا عرفنا أنَّ الحسن البصري رضي الله عنه الامام الكبير صاحب المكانة العالية كان من القصاص تبيّن لنا المستوى الذي يمكن أن يبلغه بعض من يتصدى لمهمة القصص.

ولم يكن هذا في عصر التابعين فحسب بل استمرَّ حتى زمن ابن الجوزي ومن بعده، فلقد ذكر مترجموه في سيرته ما يدل على ارتفاع شأنه وهو دون شك من كبار القصاص.

ونظرة إلى أسماء القصاص الذين أوردهم ابن الجوزي في كتابه «القصاص والمذكرين» تبينّ هذه الحقيقة بأجلى بيان.. هذا وكثيراً ما نقرأ في التراجم أن فلاناً القاضي في بلد ما كان هو القاصّ فيها أيضاً.

من أجل ذلك كان الحكام والسياسيون يخشون القصاص الذين لم يرتبطوا بهم أعظم الخشية، وقد يمنعونهم من الجلوس في المساجد إلا بإذن.

وقد كانوا في أحقاب من التاريخ سبباً في قيام بعض

الاضطرابات بين أهل السنة والفرق المنحرفة عندما كانوا يشحنون العامة بما يثيرهم، فيوقفون المبطلين عند حدهم.

كل هذا يدل على أثرهم الفعال في المجتمع واستجابة العامة لما يطلبه هؤلاء القصاص منهم على نحو ما فعل العامة من إيذاء لابن جرير[١] والشعبي[٢] والسيوطي[٣] وليس من شك في أن أثرهم الديني والخلقي كان كبيراً، ولقد استطاعوا أن يحققوا ما عجز عنه العلماء في كثير من الأحيان، وقد لاقى كلامهم رواجاً عند الدهماء وكان أشدّ استهواء لهم من كلام العلماء الجادّ الرصين.

* * *

وكان القصاص على درجة كبيرة من الجشع فقد نقل جولد زيهر عن «يتيمة الدهر» أنهم كانوا يكلفون واحداً بالجمع للقاصّ، وكان يدعى من يقوم ليجمع الصدقة في مجلس القصص، «المكوز» فكان القاصّ يأمر الحاضرين بإعطائه وإذا تفرّق الجمع تقاسما ما اجتمع من المال[٤].

وذكر ياقوت أنّ رجلاً جاء الى قاص يسمى أبا سليمان، فأعطاه فلساً وقال:

---

(١) انظر «تحذير الخواص» ١٦١.

(٢) انظر «كتاب القصاص والمذكرين» ٣٠٢.

(٣) انظر «تحذير الخواص» ٦.

(٤) انظر تعليق مترجم كتاب آدم متز (٢/ ١٤٩ الطبعة الثانية في مصر) الذي نقل عن جولد زيهر في كتابه «دراسات إسلامية» ٢/ ١٦١ - ١٧٠ وذكر جولد زيهر أنه نقله عن «يتيمة الدهر» ٣/ ١٧٨.

ادع الله أن يردَّ عليَّ ابني. فقال: وأين ابنك؟ قال: بالصين. قال: أيرده الله من الصين بفلس؟ هذا مما لا يكون. إنما لو كان بجنَّابة أو بسيراف كان نعم[1].

وكانوا بالاضافة إلى جشعهم يرغبون في حبّ الظهور والشهرة، وكان كثير منهم يتصف برقة الدين وإن كان منهم في الوقت نفسه ناس صالحون، ولكنَّ هؤلاء الصالحين أخذوا بقول العلماء الذين أجازوا التساهل في رواية الحديث في مجال الترغيب والترهيب، فسوّغوا لأنفسهم أن يوردوا قصصاً ضعيفة.. وجاء ناس آخرون فاستغلوا هذا التساهل الذي درج عليه أولئك الصالحون فعمدوا إلى اختراع قصص ودسّوها لهم فأخذوا يردّدونها.

يبدو أنَّ ظاهرة القصص بدأت مبكرة في تاريخنا، فقد جاء كلٌّ من تميم الداري[2] رضي الله عنه، وهو صحابيٌّ (متوفى سنة ٤٠ هـ) والحارث بن معاوية الكندي[3] وهو مختلف في صحبته، عمر بن الخطاب رضي الله عنه يستأذنانه في القصص، فأبى أن يأذن لهما وحذَّرهما.. ثم اشترط على تميم بعد إلحاحه في الاستئذان أن يتكلم في موضوعات معينة وفي وقت محدَّد.

وعندما ظهر عدد من القصاص ارتفعت أصوات عدد من الصحابة في استنكار هذا الأمر وكشف دوافعه التي تتلخص في

---

(١) «معجم البلدان» ٢/١٦٦ طبع بيروت.

(٢) «انظر «تحذير الخواص» ١٧٢ و«الباعث على الخلاص» ١٢٦ و«كتاب القصاص والمذكرين» ١٧٥.

(٣) انظر «تحذير الخواص» ١٨٢ و«كتاب القصاص والمذكرين» ٢٠٢.

ابتغاء الشهرة، وكسب المال، والحصول على الجاه، حتى استعان بعض الصحابة برجال الشرطة لطردهم من المسجد، وهذا ـ دون شك ـ يدل على عمق في النظرة عندهم رضي الله عنهم، لأنَّ التحدث إلى الناس في أمور الدين ودعوتهم إلى التحلي بفضائله في مجتمع يقوم على الدين يعطي المتحدث قوة وجاهاً وسلطاناً. والنفس الانسانية مفطورة على حب الذات والرغبة في اكتساب الجاه والسلطان، فإن لم تكن مخافة الله عاصمة للمرء من أن يبتغي بمثل هذا الحديث عرض الدنيا انساق إلى قول الزور واسترضاء العامة ولو كان ذلك مخالفاً للحق والشرع والعياذ بالله. . وهذا ما حصل لكثير من هؤلاء القصاص فيما بعد.

وهناك آثار عدة تحكي لنا مواقف الصحابة والتابعين من هؤلاء القصاص سنشير إليها بعد قليل، وقد ذكر بعضها ابن الجوزي في كتابه. وتوالى على مهمة الإنكار تابعو التابعين والعلماء العاملون في كل عصر، فمن ذلك صنيع الأعمش (المتوفى سنة ١٤٨ هـ) الذي رأى قاصاً في مسجد البصرة يقول:

(حدثنا الأعمش عن أبي إسحاق عن أبي وائل. .) فتوسط الأعمش الحلقة وجعل ينتف شعر إبطه. فقال له القاص: يا شيخ ألا تستحي؟ نحن في علم وأنت تفعل هذا؟ فقال الأعمش: الذي أنا فيه خير من الذي أنت فيه. قال: كيف؟ قال: لأني في سنَّة وأنت في كذب. أنا الأعمش وما حدثتك مما تقول شيئاً[1].

---

(١) انظر «تحذير الخواص» ١٤٥ ـ ١٤٦.

وقد تعرّض بعض العلماء في عصور مختلفة إلى مضايقات هؤلاء القصّاص، وقد تفاقم أمرهم وأثروا أثراً واضحاً في نشر الأحاديث الضعيفة والموضوعة بين العامة. وكان التصوف يُمدُّ القصاص بالخرافات والأباطيل وكذلك فقد كانت الاسرائيليات مصدراً من مصادر القصاص.

ومما يؤسف له أن بعض هؤلاء القصاص كانوا يعبثون بالناس ويسخرون منهم كما ذكر الجاحظ عن أبي كعب القاص(١) وكما ذكر أبو الفرج عن كلثوم بن عمرو(٢).

ويبدو أنّ نفراً منهم كان يتدخل في الشؤون العامة حتى كان بعضهم سبباً في فتنة فمنعوا من الجلوس ومن الكلام، ثم سمح لهم بمعاودة نشاطهم بعد أن أخذت عليهم العهود بعدم التعرض لما يثير القلاقل.

وأمام هذه القوة العارمة للقصّاص آثر فريق من العلماء السلامة فسكتوا خوفاً من القصّاص وإيثاراً للعافية.. بل حمل ذلك بعضهم على تأييد الباطل.. وكانت ظاهرة المجاملة أكثر وضوحاً في الأزمان المتأخرة، حتى أصبحت مهمة العالم ـ مع الأسف ـ كأنها مقصورة على تلمس المعاذير لهم، وتكلف التأويلات للكلمات المنكرة التي قد يروونها عن الصوفية ولتصرفاتهم

---

(١) انظر «الحيوان» ٣/ ٢٤.

(٢) انظر «الأغاني» ١٣/ ١١٢ طبع دار الثقافة ببيروت. و«مختار الأغاني» ٩/ ٢٤٤ طبع المكتب الإسلامي بدمشق.

الشاذة. . ولكن يأبى الله إلا أن يقوم في كل عصر عدد من العلماء الصادقين والدعاة المجاهدين ينكرون المنكر، ويكشفون زيف الدجالين، ولا يبالون فيما يصيبهم من الأذى مؤثرين رضا الله على السلامة والمنفعة العاجلة.

ومن أهم آثارهم السيئة وضعهم الحديث أو نشرهم الموضوع وإذاعته ببيان مشرق ومقدرة على الكلام بالغة. . لقد شوّهوا السنَّة المرفوعة إلى النبيﷺ في أذهان الناس إذ أدخلوا فيها كثيراً من الخرافات والأباطيل ممّا يُحيل العقل وقوعه وممّا يتعارض مع أصول الشريعة المطهرة، ولو نظرنا الى الأحاديث الموضوعة لوجدنا أن نصيب القصاص في اختلاقها كان كبيراً، وهذا أمر طبيعي، لأن هذا القصّ المستمر يتطلب مادة كثيرة وجديدة، فكانوا مدفوعين لذلك دفعاً.

قال ابن الجوزي في كتاب «الموضوعات»:

(معظم البلاء في وضع الحديث إنما يجري من القصاص، لأنهم يريدون أحاديث ترقق وتنفق، والصحاح تقلّ في هذا)[1].

إن عدداً كبيراً من هؤلاء القصّاص اتخذ القصص مهنة له يعيش من عمله فيها، ولم يكن خوف الله متوافراً عندهم، ومن هنا غدت هذه المهنة وسيلة للكسب يسعى صاحبها وراء رزقه ولذلك نراه يسارع في ابتغاء مرضاة العوام، فهو حريص على رضاهم

---

(١) «الموضوعات» ١/ ٤٤.

وإعجابهم وليس حريصاً على تقويمهم ولا تعليمهم.

والعامة أبداً وفي كل عصر يولعون بالغريب، ويعجبون بالخرافة. .ويستمتعون بالغرائب والعجائب!! حتى أضحى القاصّ كالمغني الذي لاهم له إلا إطراب السامعين. . وهكذا كانت دوافع المبالغة والكذب عند القصاصين قوية ليجدوا المادة التي تجلب السامعين وعطاياهم وليكتسبوا في كثير من الأحيان ثقة الحكام ورضاهم مما يمنحهم حصانة تحول دون انتقاد العلماء الواعين لهم.

ذكر السيوطي في «اللآلىء المصنوعة»:

أن هارون الرشيد لما قدم المدينة أعظم أن يرتقي منبر النبي ﷺ وعليه قباء ومنطقة فقال أبو البختري - وهو قاصٌ كذاب - حدثني جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر أن جبريل نزل على النبي ﷺ وعليه قباء ومنطقة فتحجر فيها تحجيراً[1].

* * *

ومن المفاسد التي كانت تحدث بسبب القصّاص اختلاط الرجال بالنساء، فقد ذكروا أنَّ هؤلاء القصاص كانوا يقصون في الطرقات والمساجد، فيجتمع الرجال والنساء فيرفعون أصواتهم بالدعاء ويمدون أيديهم - كما يقول أبو طالب المكي[2] وابن الجوزي[3] - وكان هذا الحال سبباً في انتقاد العلماء لهم، وكانوا

(١) «اللآلىء المصنوعة» ٢/ ٢٦٣.

(٢) «قوت القلوب» ٢/ ٢١ المطبعة المصرية (١٣٥١ هـ ١٩٣٢ م).

(٣) كتاب «القصاص والمذكرين» ٣٠١.

يسلكون في معاملة العوام مسلك المحتالين والمشعوذين، حتى ينالوا أعطياتهم ومنحهم، وكانوا يجمعون مالاً كثيراً ولا يبالون بالذين ينتقدونهم، ويأتون بالأساطير والخرافات، والنوادر المضحكات، والأحاديث الموضوعة، يقولون ما ليس لهم به علم.

أخرج أبو خيثمة زهير بن حرب في «كتاب العلم» عن مسروق قال:

كنَّا عند عبد الله جلوساً وهو مضطجع فأتاه رجل، فقال:

يا أبا عبد الرحمن إنَّ قاصاً عند أبواب كندة يزعم أنَّ آية الدخان تجيء فتأخذ بأنفاس الكفار، ويأخذ المؤمنين منه كهيئة الزكام.

فقال عبد الله ـ وجلس وهو غضبان ـ:

يا أيها الناس! اتقوا الله، فمن علم منكم شيئاً فليقل بما يعلم، ومن لا يعلم فليقل: الله أعلم، فإنه أعلم لأحدكم أن يقول لما لا يعلم: الله أعلم فإن الله تعالى قال لنبيه عليه السلام: ﴿**قل ما أسألكم عليه من أجر وما أنا من المتكلفين**﴾[1].

ومن المفاسد ما أشار إليه ابن الاخوة في «معالم القربة» حيث يقول:

(وفي زماننا هذا لا يطلب الواعظ إلا لتمام شهر ميت، أو لعقد نكاح، أو لاجتماع هذيان، ولا يجتمع الناس عنده لسماع موعظة ولا

---

(١) «كتاب العلم» ص ١٢٥ رقم الأثر ٦٧ تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين الألباني.

لفائدة، وإنما صار ذلك من نوع الفرح واللعب، والاجتماع، ويجري في المجلس أمور لا تليق من اجتماع الرجال والنساء، ورؤية بعضهم لبعض، وأشياء لا يليق ذكرها، وهذا من البدع المضلة)[1].

آراء عدد من الصحابة والتابعين والعلماء في القصّاص:

عمر بن الخطاب:

أورد ابن الجوزي وغيره أخباراً عن عمر رضي الله عنه تدلّ على أنه لم يكن يستريح إلى القصص.

فمن ذلك خبره مع تميم الداري[2] وخبره مع الحارث بن معاوية الكندي[3] فقد خوفه عمر من أن يكون القصص سبباً للعجب حتى يقوده ذلك إلى الهلاك قال:

«أخشى عليك أن تقصَّ فترتفع عليهم في نفسك، ثم تقص فترتفع، حتى يخيل اليك أنك فوقهم بمنزلة الثريا فيضعك الله عزَّ وجل تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك».

علي بن أبي طالب:

مرَّ عليٌّ رضي الله عنه على قاصّ فقال له: هل تعرف الناسخ

---

(١) «معالم القربة في أحكام الحسبة» ص ١٨٠.

(٢) «كتاب القصاص» ١٩٣ «والتحذير» ١٧٢ «والباعث على الخلاص» ١٢٦ و١٢٧ و«الآداب الشرعية» ٢/ ٩٠.

(٣) «كتاب القصاص» ٢٠٢ «والتحذير» ١٨٢ «والآداب الشرعية» ٢/ ٩٠.

من المنسوخ؟ قال: لا. قال: هل تعرف المحكم من المتشابه؟ قال: لا. قال: هل تعرف الزجر من الأمر؟ قال: لا.

فأخذ بيده فرفعها وقال: إنَّ هذا يقول: اعرفوني اعرفوني[1]

ومرَّ على قاص آخر فسأله: علمت الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا. قال: هلكت وأهلكت[2].

عبد الله بن عمر:

روى عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن سالم عن ابن عمر أنه كان يخرج من المسجد يقول: «ما أخرجني إلاَّ القصاص، ولولاهم ما خرجت»[3].

وروى الطبراني أن ابن عمر رأى قاصّاً يقص في المسجد الحرام، وكان معه ابن له.

فقال له ابنه: أي شيء يقول هذا؟ فقال: يقول اعرفوني اعرفوني[4].

وأخرج ابن أبي شيبة أن ابن عمر جاء فوجد قاصاً يقص في المسجد فوجه إلى صاحب الشرطة: أن أخرجه من المسجد فأخرجه[5].

---

(١) «التحذير» ١٩٠ و«الآداب الشرعية» ٢/ ٩٠.

(٢) «التحذير» ١٩١.

(٣) «الآداب الشرعية» ٢/ ٩٠.

(٤) «الباعث على الخلاص» ١٣٩ و«التحذير» ١٧٧.

(٥) «التحذير» ١٩٨.

عبد الله بن مسعود:

روى الطبراني أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه وقف على عمرو بن زرارة وهو يقصّ فقال: يا عمرو لقد ابتدعت بدعة ضلالة أو إنك لأهدى من محمدﷺ وأصحابه[1].

وروى عنه أنه كان يقول: إذا سمعتم السائل يحدث بأحاديث الجاهلية يوم الجمعة فاضربوه بالحصى[2].

عبد الله بن عباس:

روي عنه خبر مشابه لخبر عليّ من أنه لقي قاصّاً لا يعلم الناسخ من المنسوخ فقال: هلكت وأهلكت[3].

صلة بن الحارث:

روى الطبراني أن صلة بن الحارث الغفاري رضي الله عنه رأى قاصّاً يقص على الناس وهو قائم فقال: «والله ما تركنا عهد نبينا ولا قطعنا أرحامنا حتى قمت أنت وأصحابك بين أظهرنا»[4].

عائشة أم المؤمنين:

أخرج ابن سعد في «الطبقات» عن عطاء قال: دخلت أنا وعبيد بن عمير على عائشة رضي الله عنها فقالت: من هذا؟ فقال: أنا

---

(١) «التحذير» ١٧٧.

(٢) الآداب الشرعية» ٢/ ٩٣.

(٣) «التحذير» ١٩٢.

(٤) «الباعث على الخلاص» ١٣٩ و«التحذير» ١٧٨.

عبيد بن عمير، قالت: قاصّ أهل مكة؟ قال: نعم.

قالت: خفّفْ فإنَّ الذكر ثقيل[1].

أم الدرداء:

أخرج ابن أبي شيبة والمروزي عن جبير أن أم الدرداء بعثته إلى نوف بن فلان وقاصٍّ معه يقصان في المسجد فقالت: قل لهما فليتقيا الله وتكون موعظتهما للناس لأنفسهما[2].

الحسن البصري:

ذكر ابن الجوزي الحسن من أعلام القصاص، وقد روي عنه مدحٌ للقصص، ويريد به ما كان هو عليه من التذكير المتزن والوعظ السليم.

روي عنه قوله: «القصص بدعة ونعمت البدعة. كم من دعاء مستجاب وأخ مستفاد»[3].

وجاء في «الآداب الشرعية» إنه كان يجلس في مجلس القصاص بكل إجلال. قال الأوزاعي: كان الحسن إذا قصّ القاصّ لم يتكلم. فقيل له في ذلك فقال: إجلالاً لذكر الله عزَّ وجل[4].

---

(١) «الطبقات» ٥/٤٦٣ و«التحذير» ١٩٣ وانظر خبراً مشابهاً في «المسند» ٦/٢١٦ و«ابن حبان» ٥٨.

(٢) «التحذير» ١٩٩ - ٢٠٠.

(٣) «الآداب الشرعية» ٢/٩٢.

(٤) «الآداب الشرعية» ٢/٩٢.

بينما ذكر ابن الجوزي ونقل عنه السيوطي ما يدل على ذم الحسن للقصص[1] ولعلَّ التوفيق بين القولين أن كل قول باعتبار فالتأييد باعتباره تذكيراً وأمراً بالمعروف والذم لما فيه من المخالفات والله أعلم.

محمد بن سيرين:

كان ابن سيرين يستحسن القصص في بعض الأحيان، ويذمه في أحيان أخرى، فمن الأول أنه قال إنسان لابن سيرين: إنَّ أبا مجلز كان لا يقعد إلى القاصّ. قال: قعد إليه من هو خير منه[2] ومن الثاني أنه سأل رجلٌ محمد بن سيرين عن القصص. قال: بدعة، إن أول ما أحدث الحرورية القصص[3].

غضيف بن الحارث:

روى أحمد عن غضيف بن الحارث أنه قال: بعث إليَّ عبد الملك بن مروان قال: يا أبا أسماء إنا جمعنا الناس على أمرين. فقال: وما هما؟ قال: رفع الأيدي على المنابر يوم الجمعة، والقصص بعد الصبح والعصر. فقال: أما إنهما أفضل بدعكم ولست بمجيبكم إلى شيء منهما. قال: ولم؟ قال: لأنَّ النبي ﷺ

---

(١) «كتاب القصاص» ٣٥٥ و«التحذير» ٢٢٧.

(٢) «الآداب الشرعية» ٢/ ٩٢.

(٣) «كتاب القصاص والمذكرين» ٣٣٨ و«تحذير الخواص» ٢٢٢.

قال: «ما أحدث قوم بدعة إلا رفع من السنة مثلها» فتمسك بسنة خير من إحداث بدعة[١].

الأوزاعي:

سئل الأوزاعي عن القوم يجتمعون فيأمرون رجلاً فيقص عليهم فقال: «إذا كان ذلك يوماً بعد الايام فليس به بأس»[٢].

فهو يرى أن القصص له مهمة وهي الوعظ والتذكير، وليس مهنة تتخذ لذاتها، وعند ذاك فقد تكون مملة وقد تضطر صاحبها إلى أن يكذب.

مالك بن أنس:

رُوي عنه كراهية القصص. ذكر ذلك ابن الحاج في «المدخل»[٣].

سفيان الثوري:

كان مذهب سفيان ألا يستقبلوا القصاص بوجوههم بل عليهم أن يولوا البدع ظهورهم وأصحابها أيضاً[٤].

أحمد بن محمد بن حنبل:

كان الامام أحمد يقف منهم الموقف المنصف، فيذكر ما لهم من الفضل وحسن التأثير ويأخذ عليهم تهاونهم في رواية الأحاديث

---

(١) «الآداب الشرعية» ٢/ ٩٣. و«المسند» ٤/ ١٠٥.

(٢) «الآداب الشرعية» ٢/ ٩٢.

(٣) «المدخل» ٢/ ١٤٨ «والتحذير» ٢١٢.

(٤) «الآداب الشرعية» ٢/ ٩٠ وانظر ما سنورده عنه في أثناء عرض رأي أحمد في القصاص.

فيعجبه منهم ذكرهم الشفاعة والصراط والميزان وعذاب القبر، ولا سيما إن كان القاص صدوقاً.

قال المروزي: سمعتُ أبا عبد الله يقول: يعجبني القصّاص لأنهم يذكرون الميزان وعذاب القبر. قلت لأبي عبدالله: أفترى الذهاب إليهم؟ قال: إي لعمري إذا كان صدوقاً. لأنهم يذكرون الميزان وعذاب القبر. قلت: كنت تحضر مجالسهم وتأتيهم؟ قال: لا!! وقال في رواية علي بن زكريا التمار: يعجبني القصاص في هذا الزمان، لأنه يذكر الشفاعة والصراط[1].

وكان يوصي بعض المرضى بالوسوسة بحضور مجالسهم، فلقد شكا رجل اليه الوسوسة فقال: عليك بالقصاص ما أنفع مجالسهم[1].

وكان يرى حاجة المجتمع إلى القصاص الصدوق فقال كما يروي عنه جعفر بن محمد: «ما أحوج الناس إلى قاصّ صدوق».. وقرّر نفعهم للعامة وإن كان كثيرٌ مما يتحدثون به كذباً، فقال في رواية إسحاق بن إبراهيم عنه: «ما أنفعهم للعامة وإن كان عامة ما يتحدثون به كذباً»[2] وهو يريد أن نفعهم للعوام متحقق في تخويفهم من الله عزّ وجل، وترغيبهم في الخير وتزهيدهم في الدنيا. ولو أنهم جمعوا إلى هذا الصدق في الحديث لبلغوا مرحلة

---

(١) «الآداب الشرعية» ٢/ ٨٩.

(٢) «الآداب الشرعية» ٢/ ٩٠.

الكمال. ولذلك كان يصرّ على أن مجالسة القصاص لا تكون إلا بشرط أن يكون القاصّ صدوقاً.

فقد سئل عن مجالسة القصاص فقال: «إذا كان القاصّ صدوقاً فلا أرى بمجالسته بأساً»[1] وهو في هذا يختلف عن سفيان الثوري الذي لم يكن يرخص فيه بحال من الأحوال وعندما ذكر له[2] رأي ابن عمر وسفيان اعترف بأن هذا هو مذهبهما ولكنه مع ذلك يرى أنَّ للقصَّاص دوراً مهماً في عصره إذ يقومون بتذكيرهم بحقائق الدين ويخوفونهم من عذاب الله.

سئل أحمد عن القصص فرخَّص فيه، فقال له مهنّا: حدثنا عبد الرزاق عن معمرعن الزهري عن سالم عن ابن عمر أنه كان يخرج من المسجد يقول: « ما أخرجني إلا القصّاص ولولاهم ما خرجت» فقال الامام أحمد: يعجبني القصاص اليوم لأنهم يذكرون عذاب القبر ويخوفون الناس، فقال له مهنا: حدثنا ضمرة قال: جاءنا سفيان ههنا فقلنا: نستقبل القصاص بوجوهنا؟ فقال: ولوا البدع ظهوركم. فقال أحمد: نعم هذا مذهب الثوري[1].

وفي حوار لأحمد مع حنبل قال له :القصاص الذي يذكر الجنة والنار والتخويف وله نية وصدق الحديث فأما هؤلاء الذين أحدثوا من وضع الأخبار والأحاديث فلا أراه[3].

---

(١) «الآداب الشرعية» ٢/ ٩٠.

(٢) أي لأحمد.

(٣) «الآداب الشرعية» ٢/ ٩٢.

ومع تقريره أنَّ القصاص من أكذب الناس[1] لم يكن يشتد عليهم وكان يكره أن يمنعوا لأنه ربما يسمعهم الجاهل فلعله ينتفع بكلمة أو يرجع عن أمر وربما جاءوا بالأحاديث الصحيحة[2] وكان يجب ألا يطيلوا فيملوا الناس قال: لا أحب أن يمل الناس ولا يطيل الموعظة إذا وعظ[3].

ابن قتيبة:

قال ابن قتيبة:

(إن الحديث يدخله الفساد من وجوه الزنادقة واحتيالهم للاسلام وتهجينه بدسّ الأحاديث المستبشعة والمستحيلة والقصاص فإنهم يميلون وجوه العوام إليهم ويستدرون ما عندهم بالمناكير والغرائب من الأحاديث، ومن شأن العوام ملازمة القاص ما دام يأتي بالعجائب الخارجة عن نظر العقول)[4].

ابن حبّان:

علق ابن حبان على قصة[5] أحمد ويحيي مع القاص الذي

---

(1) «الآداب الشرعية» ٢/ ٩٠.

(2) «الآداب الشرعية» ٢/ ٩٢.

(3) «الآداب الشرعية» ٢/ ٩٣.

(4) «تأويل مختلف الحديث» (الطبعة الاولى) ص ٣٥٧. (والطبعة الثانية) ص ٢٧٩ وانظر أيضاً «لسان الميزان» ١/ ١٣ فقد أورد هذا النص.

(5) انظر القصة في «الموضوعات» ١/ ٤٦ و«الميزان» ١/ ٤٧ و«اللآلىء» ٢/ ٣٤٦ و«تحذير الخواص» ١٤٢.

كذب عليهما فقال: (فإذا كان مثل هؤلاء يجسرون على أحمد ويحيي حتى يضعوا الحديث بين أيديهم من غير مبالاة بهم، كانوا إذا حلوا بمساجد الجماعات ومحافل القبائل مع العوام والرعاع أكثر جسارة في الوضع)[1].

الغزالي:

قال في الإحياء[2]:

أما القصص فهي بدعة، وقد ورد نهي السلف عن الجلوس إلى القصاص وقالوا: لم يكن ذلك في زمن رسول الله ﷺ ولا زمن أبي بكر ولا عمر (رضي الله عنهما) حتى ظهرت الفتنة وظهر القصاص.

وروي أن ابن عمر (رضي الله عنه) خرج من المسجد فقال: ما أخرجني إلاَّ القاص ولولاه لما خرجت. وقال ضمرة قلت لسفيان الثوري: نستقبل القاص بوجوهنا؟ فقال: ولوا البدع ظهوركم.

وقال ابن عون: دخلت على ابن سيرين فقال: ما كان اليوم من خبر؟ فقلت: نهى الأمير القصاص أن يقصوا. فقال: وفق للصواب.

---

(١) «معرفة المجروحين من المحدثين» طبع دار الوعي بحلب ١/٨٨.

(٢) «إحياء علوم الدين» ١/ ٤٠.

ودخل الأعمش جامع البصرة. . (وذكر القصة)

وقال أحمد: أكثر الناس كذباً القصاص والسؤال.

وأخرج عليّ (رضي الله عنه) القصاص من مسجد جامع البصرة، فلما سمع كلام الحسن البصري لم يخرجه إذ كان يتكلم في علم الآخرة والتفكير بالموت والتنبيه على عيوب النفس وآفات الأعمال وخواطر الشيطان ووجه الحذر منها، ويذكر بآلاء الله ونعمائه وتقصير العبد في شكره ويعرّف حقارة الدنيا وعيوبها وتصرمها ونكث عهدها وخطر الآخرة وأهوالها، فهذا هو التذكير المحمود شرعاً الذي روي الحث عليه في حديث أبي ذر حيث قال[1]: «حضور مجلس ذكر أفضل من صلاة ألف ركعة، وحضور مجلس علم أفضل من عيادة ألف مريض، وحضور مجلس علم أفضل من شهود ألف جنازة» فقيل: يا رسول الله ومن قراءة القرآن؟ فقال: «وهل تنفع قراءة القرآن إلا بالعلم. .».

فقد اتخذ المزخرفون هذه الأحاديث حجة على تزكية أنفسهم ونقلوا اسم التذكير إلى خرافاتهم وذهلوا عن طريق الذكر المحمود واشتغلوا بالقصص التي تتطرق إليها الاختلافات والزيادة والنقص، وتخرج عن القصص الواردة في القرآن وتزيد عليها، فإن من القصص ما ينفع سماعه، ومنها ما يضر وإن كان صدقاً. ومن فتح

---

(١) قال الحافظ العراقي: حديث أبي ذر. . ذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» من حديث عمر، ولم أجده من طريق أبي ذر انظر «إحياء علوم الدين» ١/ ١٦.

ذلك الباب على نفسه اختلط عليه الصدق بالكذب والنافع بالضار. فمن هذا نُهي عنه.

ولذلك قال أحمد بن حنبل رحمه الله:

ما أحوج الناس إلى قاص صادق.

فإن كانت القصة من قصص الأنبياء عليهم السلام فيما يتعلق بأمور دينهم وكان القاص صادقاً صحيح الرواية فلست أرى به بأساً.

فليحذر الكذب وحكايات أحوال تومىء الى هفوات أو مساهلات يقصر فهم العوام عن إدراك معانيها أو عن كونها هفوة نادرة مردفة بتكفيرات متداركة بحسنات تغطي عليها فإن العامي يعتصم بذلك في مساهلاته وهفواته ويجد لنفسه عذراً فيه، ويحتج بأنه حكي كيت وكيت عن بعض المشايخ وبعض الأكابر، فكلنا بصدد المعاصي، فلا غرو إن عصيت الله تعالى، فقد عصاه من هو أكبر مني، ويفيده ذلك جراءة على الله تعالى من حيث لا يدري. فبعد الاحتراز عن هذين المحذورين فلا بأس به. وعند ذلك يرجع إلى القصص المحمودة وإلى ما يشتمل عليه القرآن، ويصح في الكتب الصحيحة من الأخبار. ومن الناس من يستجيز وضع الحكايات المرغبة في الطاعات، ويزعم أن قصده فيها دعوة الخلق إلى الحق فهذه من نزغات الشيطان، فإن في الصدق مندوحة عن الكذب وفيما ذكر الله ورسوله ﷺ غنية عن الاختراع في الوعظ. كيف وقد كره تكلف السجع وعد ذلك من التصنع.

قال سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه لابنه عمر وقد سمعه يسجع:

هذا الذي يبغضك إليَّ. لاقضيت حاجتك أبداً حتى تتوب، وقد كان جاءه في حاجة.

وأما الأشعار فتكثيرها في المواعظ مذموم قال تعالى: ﴿**والشعراء يتبعهم الغاوون ألم تر أنهم في كل واد يهيمون..**﴾.. وأكثر ما اعتاده الوعاظ من الأشعار ما يتعلق بالتواصف في العشق وجمال المعشوق وروح الوصال وألم الفراق والمجلس لا يحوي إلا أجلاف العوام، وبواطنهم مشحونة بالشهوات، وقلوبهم غير منفكة عن الالتفات إلى الصور المليحة، فلا تحرك الأشعار من قلوبهم، إلا ما هو مستكن فيها، فتشتعل فيها نيران الشهوات، فيزعقون ويتواجدون، وأكثر ذلك أو كله يرجع إلى نوع فساد.

فلا ينبغي أن يستعمل من الشعر إلا ما فيه موعظة أو حكمة على سبيل استشهاد واستئناس.

وقال الغزالي في «الاحياء» في باب منكرات المساجد[1]:

[ومنها كلام القصاص والوعاظ الذين يمزجون كلامهم بالبدعة فالقاص إن كان يكذب في أخباره فهو فاسق، والإنكار عليه واجب.

وكذا الوعظ المبتدع يجب منعه، ولا يجوز حضور مجلسه

---

(١) «الإحياء» ٢ / ٣٣١.

إلا على قصد إظهار الرد عليه، إما للكافة إن قدر عليه أو لبعض الحاضرين حواليه، فإن لم يقدر فلا يجوز سماع البدع.

ومهما كان الواعظ شاباً متزيناً للنساء في ثيابه وهيئته كثير الأشعار والاشارات والحركات وقد حضر مجلسه النساء فهذا منكر يجب المنع منه، فإن الفساد فيه أكثر من الصلاح..].

ابن عقيل:

قال ابن عقيل في «الفنون» (نقلاً عن «الآداب الشرعية»)[1]:

[ولا يصلح للكلام على العوام ملحد ولا أبله، وكلاهما يفسد ما يحصل لهم من الإيمان، وقال: المرء مخبوء تحت لسانه، ولا بد أن ينكشف قصده من صفحات وجهه وقلبه أو لسانه.

وقال: ما أخوفني على من كانت الدنيا أكبر همه أن تكون غاية حظه.

قال: «وسئل عن قوم يجتمعون حول رجل يقرأ عليهم أحاديث وهو غير فقيه فقال: هذا وبال على الشرع، أو نحو ذلك.

فإنَّ جماعة من العوام تفرقوا عن مجلس مثل هذا وبعضهم يقول لبعض: استغفر الله مما فعلت كثيراً، ولم أعلم أن الشرع قد نهى عنه.

قيل: وما هو؟

(١) «الآداب الشرعية» ٢/ ٩٤.

قال: كنت أبذل ماء قراحي وأبذل حقي من الماء، وإذا هو قد نهى الشرع عنه، فإنه قد روى لنا الشيخ عن النبي ﷺ[1]:

«لا يسقينَّ أحدكم ماءه زرع غيره»

وقد نهى النبي ﷺ عن بيع وشرط، وقد كنت أشرط الخيار لنفسي. فأستغفر الله من ذلك.

فهذا وأمثاله إذا ورد وسمعه العوام كان نسخاً عندهم لأحكام الشرع، وإنما الراوي إذا كان قادراً أن يبين خصوص العام المخصص، وتقييد المطلق بتقييده، وإلا فمخاطرة.

وربما قرأ «نفس الرحمن من اليمن».

«والحجر الأسود يمين الله».

ومعلوم أن من اعتقد ظاهر هذا كفر].

الحافظ الذهبي:

يدل على رأيه ما جاء في «الميزان»[2] في ترجمة عبد المنعم بن إدريس إذ قال:

(قصّاص. ليس يعتمد عليه. تركه غير واحد)

---

(١) جاء في حاشية ناشر كتاب «الآداب الشرعية» ما يأتي: (فأما النهي عن سقي الرجل زرع غيره فهو كناية عن وطء من حملت من غيره. والعرب تطلق كلمة «الزرع» على الولد).

(٢) «الميزان» ٦٦٨/١.

وقال في كتابه «بيان زغل العلم»[1]: «الوعظ فنّ بذاته يحتاج إلى مشاركة جيدة في العلم ويستدعي معرفة حسنة بالتفسير والاكثار من حكايات الصالحين الفقهاء والفقراء والزهاد، وعدته التقوى والزهادة. فإذا رأيت الواعظ راغباً في الدنيا، قليل الدين فاعلم أن وعظه لا يتجاوز الأسماع، وكم من واعظ مفوه قد أبكى وأثر في الحاضرين في تلك الساعة ثم قاموا كما قعدوا..).

الحافظ ابن تيمية:

نشرت لابن تيمية رسالة حقق فيها القول في أحاديث يرويها القصاص وقال ـ كما ينقل عنه ابن مفلح ـ: (قال الامام أحمد: أكذب الناس على رسول الله ﷺ السؤال والقصَّاص. فيجب منع من يكذب مطلقاً. فكيف إذا كان يكذب ويسأل ويتخطى؟ وكيف من يكذب على رؤوس الناس في مثل يوم الجمعة؟ فنهيُ من يكذب من أعظم الواجبات. بل ونهيُ من روى ما لا يعرف أصدق هو أم كذب)[2].

ابن مفلح:

عقد ابن مفلح في كتابه «الآداب الشرعية»[3] فصلاً مطولاً عن القصَّاص جمع فيها آراء العلماء المتعارضة في القصَّاص ولم يذكر هو شخصياً رأيه بوضوح وقوة.

---

(١) «بيان زغل العلم» ٢٩ ـ ٣٠ مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧ هـ نشرة القدسي.

(٢) «الآداب الشرعية» ٢/ ٩٣.

(٣) «الآداب الشرعية» ٢/ ٨٩ ـ ٩٩.

الحافظ العراقي:

كتبتُ فصلاً مطولاً عن العراقي والقصّاص في مقدمتي لكتابه القيّم الذي نشرتهُ أول مرة في مجلة أضواء الشريعة[١] ويدلل على موقفه منهم عنوان كتابه وهو «الباعث على الخلاص من حوادث القصاص» فلقد كان ذامّاً لهم، كاشفاً لعيوبهم، مبيناً غلطاتهم، ونحيل القارىء على كتابه المذكور.

السيوطي:

يبدو أنّ السيوطيّ تعرَّض إلى بعض المضايقات من بعض القصاص وقد ذكر ذلك في مقدمة كتابه «تحذير الخواص».

وهو في هذا الكتاب يقف من القصاص موقفاً معارضاً مبيناً أنهم قوم كذابون، وإنك لترى ذلك واضحاً من عنوان الكتاب:

«تحذير الخواص من أكاذيب القصاص»

وقد كتبتُ كذلك فصلاً مطوّلاً عن هذا الكتاب في مقدمتي له.

المصنفات التي ألفت في القصّاص خاصة[٢]:

قد يفيد أن نذكر بعض المصنفات التي تتحدث عن القصاص وتبين ما لهم وماعليهم،وتذكر أثرهم، وتحذر الناس منهم. وهي:

---

(١) انظر الكلام عن هذا الكتاب في الفصل الآتي: (المصنفات التي ألفت في القصاص خاصة).

(٢) سنقتصر هنا على الكتب المؤلفة فيهم خاصة، أما الكتب التي تعرضت لذكرهم =

١ ـ أخبار القصاص: لأبي بكر محمد بن الحسين المعروف بالنقاش الموصلي المتوفى ٣٥١ ولم أقف عليه. وقد ذكره حاجي خليفة[1].

٢ ـ كتاب القصاص والمذكرين: لابن الجوزي المتوفى ٥٩٧ هـ[2] وقد حققت هذا الكتاب وقدمت له ونشره المكتب الاسلامي ببيروت سنة ١٤٠٣ هـ.

٣ ـ الباعث على الخلاص من حوادث القصاص: للحافظ العراقي المتوفى سنة ٨٠٦ هـ وقد أورد المؤلف في هذا الكتاب الأحاديث والآثار التي تؤيد ما ذهب إليه من معارضة القصاص وذمهم.

وخلا الكتاب من الفصول والأبواب والعناوين لأن المؤلف ـ على ما يبدو ـ كان يعد الكتاب كله فصلاً واحداً فيه لمن تدبره ووعاه خلاص من حوادث القصاص.

ولعله كان يرمي إلى تنبيه أولي الأمر في الدولة إلى هذه الفئة للقيام بمنعهم والحيلولة دون ضررهم على المسلمين. فهو يقول في آخر الكتاب:

(فيجب على ولاة أمور المسلمين منع هؤلاء من الكلام على الناس حتى تتبين أهليتهم لذلك عند العلماء الراسخين، فذلك من النصيحة لله ولرسوله ولولاة أمور المسلمين).

= فتجد إشارة لها واقتباساً منها في كلامنا على مواقف العلماء من القصاص.

(١) «كشف الظنون» ١/ ٢٨.

(٢) وقد كتبت كلمة في التعريف به في مقدمتي لكتاب القصاص والمذكرين.

وقد حققت هذا الكتاب لأول مرة عن مخطوطة موجودة بمكتبة جامعة الرياض ونشرته في مجلة أضواء الشريعة في الرياض[1].

٤ ـ تحذير الخواص من أكاذيب القصاص: للسيوطي المتوفى ٩١١ هـ.

وهو كتاب نافع جامع، وقد نشرته بطبعة محققة في سنة ١٣٩٢هـ، وأعيد طبعه في هذا العام بعد أن وقفت على مخطوطات لم يسبق لي أن اطلعت عليها.

وفي الطبعة الجديدة مزيد من التحقيق والشرح.

٥ ـ هذا وقد قام عدد من المستشرقين بدراسات عن القصاص، وهذه الدراسات لا يطمأن لها بحال، وهي خالية من القصد الحسن والتصور الصحيح.

ونستطيع أن نذكر هنا أيضاً بحوث بعض المستشرقين التي نشروها في كتب لهم ليست مقصورة على القصاص: منها ما ذكره آدم متز في كتابه «الحضارة الاسلامية في القرن الرابع». ومنها ما كتبه جولد زيهر في كتابه «دراسات إسلامية».

٦ ـ أما المسلمون في العصر الحديث فما يزالون مقصرين في دراسة هذا الموضوع وإنه بحاجة إلى دراسة متأنية وتعمق كاف

(١) العدد الرابع من مجلة «أضواء الشريعة» سنة ١٣٩٣ وهو الآن مُعَدٌّ للطبع يسر الله سبيل نشره مستقلاً.

ومسح لما ورد عن القصاص في كتب ثقافتنا الاسلامية على شتى علومها.

هذا وقد كتب الأستاذ أحمد أمين فصلاً في «فجر الاسلام» استقى معظم مادته مما كتبه متز وجولد زيهر وذلك في الباب الخامس من فجر الإسلام تحت عنوان (الحركة العلمية في القرن الأول الهجري).

إنَّ واجب العلماء اليوم أن يقوموا بمتابعة جهود أولئك الأئمة الأعلام الذين مرَّ ذكرهم آنفاً، في النصح للأمة في كشف حقيقة المتاجرين بالدين، وبيان وجه الحق في الأحاديث المكذوبة التي يوردونها، لتتكامل حلقات سلسلة جهاد العلماء المجاهرين بالحق.

وفقنا الله إلى أن نكون ممَّن يقولون الحق لا يخشون في الله لومة لائم.

والحمد لله رب العالمين

الفهرس

الموضوع	الصفحة